التأريخ بالمناقب أو الوعي بالذات

محمد فتحة

كلية الآداب- الرباط

يتفق أغلب الدارسين الذين اعتنوا بقضايا التصوف وبمؤلفاته على أن كتابي المستفاد للتميمي والتشوف للتادلي يعدان من أقدم ما وصلنا من مصنفات في هذا الباب في المغرب الأقصى. فلماذا تأخر تدوين أخبار الزهاد والصلحاء إلى مطلع القرن السابع الهجري بالرغم من أن الإشارة إلى سابق تأليف في الموضوع غير منعدمة ؟[1] وما هي الحاجة الجديدة التي اقتضت الكتابة عن رجالات التصوف؟ هل يتعلق الأمر بالاقتداء بتجارب مشرقية معروفة في هذا الصدد كما هو الأمر بالنسبة لأبي النعيم الأصفهاني صاحب كتاب حلية الأولياء والتأسيس بالتالي، لصنف من الكتابة معروف بالكاد؟ أم أن كثافة الظاهرة والإنشغال بالخلاص الذاتي وإقبال أعداد متزايدة من الناس على بعض من اشتهر من شيوخ الوقت من أجل التوبة وتطهير النفس من دنس الدنيا،كان من بين أسباب الاهتمام بأخبار القوم حفاظا عليها وصونا لممارسة دينية جديرة بأن يقتدى بها؟ أم أنه بالإضافة إلى هذا وذاك، فإن تطور هذه الممارسة أدى إلى بروز تنافر جلي بين أهل الباطن وأهل الظاهر وإلى تشوف الأجيال اللاحقة من المتصوفة إلى تدوين أخبار الشيوخ وتجاربهم وتمنيعها بالكرامة تأسيا بمؤلفات خص بها العلماء وحدهم[2].

---

(1) ابن الزيات التادلي، كتاب التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب الرباط، ص.15.

(2) يعد كتاب القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، أقدم ما ألفه أهل المغرب الأقصى في تراجم فقهاء المالكية. وجدير بالذكر ان القاضي استهل كلامه في مقدمة الكتاب بالإشارة إلى ان ما دفعه إلى الكتابة هو الاستجابة لرغبات الأصحاب وهي جملة تشاركها معه فيما بعد أغلب من ألف في مناقب القوم.

ومما لاشك فيه، أن التحول من وسط تداولت أخباره شفهيا من قبل، إلى وسط مدون لها، يعد في الواقع ترجمة لرغبة في ترصيد تجارب روحانية وسلوكية وتربوية من شأنها الانتصار لمنهج لم تشبه بعد تلك الشوائب التي مست بعض مكونات الوسط الفقهي بعد تورطه إلى جانب الحكام في اختيارات مشبوهة.

تعبر هذه السيرورة في اعتقادنا عن تموقع بعد إهمال وتطلع لاحتلال موقع بين أهل الفضل بعد الصحابة والتابعين ومن تبعهم، فلا حديث عن العلماء إلا بشرط الانقطاع للعبادة والطاعة[3]. وعلى الرغم من أن كتاب المستفاد[4] سابق بسنوات قليلة للتشوف، فإنه فيما يخص الإشكال الذي نعتني به في هذا البحث لا يقدم إجابات بنفس الوضوح الذي نقف عليه في الكتاب الثاني بسبب ما عرض له من بتر ، ونقصد من هذا الموقع المحوري لأبي حامد الغزالي وكتابه إحياء علوم الدين في ردات الفعل من قرار الإحراق[5]، إذ لا شك أن التصفية الرمزية للاتجاه الغزالي ومنع تداول كتبه يعتبر محطة مفصلية في التاريخ الفكري والسياسي للمغرب كان لها أثر كبير بالنظر إلى مسألتين اثنتين، أولاهما انخراط محمد بن تومرت في المنحى الغزالي لتقويض دولة المرابطين وثانيهما ميلاد تيار اتخذ من مناصرة الإحياء وسيلة مقاومة لنظام سياسي تورط في اختيارات غير مشروعة ووسط فقهي مساند له ومحسوب عليه[6].

وبالرغم مما يحوم من التباس حول لقاء المهدي بن تومرت بالغزالي وما حصل من إثارة في المصادر الموحدية لإحراق كتاب الإحياء ودعاء الغزالي بزوال دولة المرابطين وتأهيل ابن تومرت للأمر، فإن قرار الإحراق اتخذ بعد ذلك في الغالب أواخر سنة 507هـ أو بداية 508هـ؛ بما يعنيه ذلك من رغبة في الإفادة من هذا المناخ

---

(3) التشوف...، ص. 35

(4) محمد بن عبد الكريم التميمي، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق محمد الشريف، تطوان، 2002

(5) احرق كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، كما هو معروف بأمر من أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي سنة 507هـ بإيعاز من عدد من فقهاء الأندلس والمغرب الأقصى.

(6) محمد القبلي رمز "الإحياء" وقضية الحكم في المغرب الوسيط، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الرباط،1987، ص. 29

الديني داخل الأوساط الموحدية والذي انخرط فيه ابن تومرت بعد رجوعه من المشرق فكرا وعملا، إذ اشتهر بالزهد والورع والتقشف ومصاحبة أهل الصلاح واتخاذ الرباط (رابطة الغار ورابطة وانسري) كما عمل على تغيير المناكر وكانت له مجاهداته ورياضاته وكراماته(...) الخ. وسواء توفق ابن تومرت في استدراج جموع الزهاد إلى ما كان يرومه أم لا، فإن علاقة الدولة بهذا الوسط، وكما في تجارب أخرى، سرعان ما تأثرت بالكيفية التي حكم بها الموحدون البلاد والتي تميزت بالتحكم واحتجان الأموال والممتلكات والتضييق على مشايخ هذا العصر، وبمعنى آخر، فإن الأسباب الموضوعية لتكاثر أنصار النزعة الإحيائية خلال حكم المرابطين لم ترتفع، بل لربما شهدت تحولا نوعيا إذ ظهر في هذا العصر الموحدي كبار مشايخ التصوف المغربي ومستند من أتى بعدهم كأبي شعيب السارية (ت561) وأبي يعزى يلنور (ت572) وأبي الحسن علي بن حرزهم (ت559) وأبي مدين(ت594) وغيرهم.

التأريخ للتصوف أمر في غاية الصعوبة، وأصعب منه محاولة رصد محطاته الكبرى، وإذا كنا نركز على ما يتصل بإحراق كتاب الإحياء، فلأنه يمثل أحد نتوءات المشهد الصوفي، له ما قبله وله ما بعده. ولعل إحدى أهم الملاحظات في هذا الصدد أن أخبار الزهاد والمتصوفة تبدو شديدة الصلة بأخبار الدول بحيث يبدو بوضوح أن أحدهما تأثر بالآخر ولهذا لا نعجب إذا ما وجدنا مثلا أن محرر مادة التصوف في معلمة المغرب قد أرجع بداياته إلى القرن الخامس الهجري. ومعلوم أن بعض تجارب الزهد والتقوى كانت معروفة من قبل وفي أماكن مختلفة من البلاد وأن مجموعة من الربط اشتهرت ما بين القرن الثالث والقرن الخامس الهجريين في شمال المغرب وجنوبه ومن بينها رباطات شالة وأصيلا وتشومس وسيدي وجاج وماسة وأكوز وشاكر وتيط نفطر وإمي ن تمدا عند هسكورة[7]. لكن أهم ما ميز تجارب الصلاح المذكورة أنها ساهمت في نشر المعرفة بالدين وجهاد الفرق المنحرفة أو المخالفة للسنة، إلى أن وحد المرابطون المجال والممارسة الدينية في إطار المذهب

(7) الحسين أسكان، الدولة والمجتمع على عهد الموحدين (515هـ-668هـ) أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، كلية الآداب ظهر المهراز، فاس، 2001 مرقونة، ص. 42 وما يليها

المالكي. وانطلاقا من هذا التاريخ، صار للصلاح أدوار أخرى،لم ينقطع معها تقويم السلوك والاهتمام بالتربية والتكوين، وقد تجلت في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتصدي لبعض الممارسات التي جعلت الفقه وسيلة لكسب الدنيا وتزكية التجاوزات، وهي من الأسباب الكامنة وراء ارتياب الدولة ومن يدور في فلكها، في نوايا هؤلاء المنكرين والشروع في مواجهة رموزهم سواء تعلق الأمر بأشخاص أو بمرجعيات.

للفرقاء الثلاثة علاقة متفاوتة بالأثر المكتوب، فالمصادر التاريخية المرابطية قليلة جدا وأهمها يعد في حكم الضائع[8] والفقهاء حفظت سيرهم في كتب التراجم ولم يثبت أن المتصوفة خلفوا أثرا في تراجم شيوخهم، اللهم ما كان من تدريس بعض المؤلفات المشرقية في التصوف ومن بينها رعاية المحاسبي وقوت القلوب لأبي طالب المكي والرسالة القشيرية في علم التصوف وكتاب الإحياء للغزالي. ومعلوم أن هذا الأخير قد استنسخ بكثرة في المغرب والأندلس وكان موضوعا للدراسة والاختصار على يد عدد من الشيوخ كأبي الفضل بن النحوي وأبي محمد بن حرزهم وابن الرمامة وعمور البطاط وأبي مدين[9]. وباستثناء ذلك فقد تداولت أخبارهم شفهيا إلى غاية مطلع القرن السادس الهجري، ليتم التركيز أكثر على تجارب الشيوخ وأتباعهم فيما يشبه التراجم، لكنها تراجم بلون خاص، ركزت على جانب السلوك والإقلال والزهد في متاع الدنيا والورع الشديد والبركة وقوة الكرامة والمكاشفة ببواطن الأمور والدعاء المستجاب، دونما إغفال لتفقه الكثيرين في أمور الدين والحرص على تقدير من يقتدى به من حملة العلم.

لماذا تأخر تدوين أخبار رجال التصوف في المغرب إلى هذا العهد؟ وهل يعكس الشروع في كتابة مناقبهم محطة جديدة أريد بها نسخ تراجم العلماء والتمهيد بالتالي لمن يجب الاقتداء بهم فعلا؟ أم أن تلك الدرة الثمينة قد أثرت فيها عوادي الزمن وصارت إلى حال من التضخم قل معه الصالحون المخلصون وبقيت الحثالة التي لا

---

(8) محمد المنوني،، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج1، منشورات كلية الآداب – بالرباط، 1983

(9) التشوف، ص. 325، 96، المستفاد، 171، 117

يبالى بها، كما يتضح من بعض المؤلفات المناقبية[10]. سبقنا إلى التأمل في هذه الأمور الأستاذ أحمد التوفيق في تحقيقه للتشوف، وأبدى رأيا يستند إلى مضمون الكتاب مفاده أن للتشوف قضية أو اثنتين هما إظهار مدينة من بين مدن أخرى أو إبراز ظاهرة الصلاح مقابل ظاهرة أخرى، معتبرا أنهما وجهان لواقع واحد هو" استفحال العمران وما ترتب عنه من عواقب متناقضة." وإذ نقر بصعوبة استيعاب علاقة استفحال العمران بما تصدى له صاحب التشوف، فإننا نعتقد أن المحقق أصاب بربطه سياق التأليف بتبعات اندحار المسلمين في معركة العقاب لما كان لها من أثر على العمران والأذهان. لا شك أن ما ورد في التشوف[11] من تبجيل للسلف يوافق منهجا في السنة يقضي بأن "صحابة رسول الله هم خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"، وأن تفسير الأزمات الكبرى في أعمار الدول، وحتى في أعمار الأشخاص، اقتضى في كثير من الأحيان مراجعة جماعية للعلاقة بالخالق وبالدين الصحيح، وغالبا ما كان يتم الوصول إلى العلة؛ فالانتكاس والنكبة وسقوط قلاع الإسلام في يد الكافر ما كان ليحصل لولا التفريط في الدين وضعف الإيمان والابتعاد عن مناهج السلف الصالح. وإذا كان الأمل معقودا على المجدد القرني أو على المهدي المخلص، وهي قيم متقاسمة ومتداولة داخل الوسط الصوفي؛ فظاهر كلام التادلي يحيل على طائفة تموت في حب الرسول عليه السلام، نرجح أنهم رجالات التصوف[12]، تلك الثلة من الأشياخ العاملين الذين أسسوا للعصر الذهبي للتصوف واعتبروا أسانيد من يأتي بعدهم، ممن يعول عليهم فيما يظهر، لتأهيل الحياة الدينية وإعادة الأمل لمجتمع أضاع وجهته وتاه، لأن صفوة علمائه، أولئك الذين وصفوا غير ما مرة بالمنكرين وبالأرضيين وبأهل الظاهر، اختاروا ممالأة أهل الدنيا، ولأن المذهب التومرتي لم يوافق بساطة الاعتقاد والحاجة إلى وسائط لدى غالبية الناس ولم يقد الحكام إلى طريق الهداية، ولأن الأسرة الموحدية وعصبيتها ترددتا في شأن إصلاح مضاد وانقسمتا في شأن مهدوية ابن تومرت، ولم

---

(10) التشوف، ص 41، البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب ، الرباط1982.

(11) التشوف،ص.41–42

(12) المصدر،ص. 42

تتمكن من التوقف عن التضييق على الأرزاق والأفكار إلى أن كان ما كان من سوء عاقبتها. وإذن، فقد قصد المؤلف "إيراد عجائب القوم لعل الله ينفع بهم" ولأن "قلوبهم مصابيح يهتدى بها في الظلمة."

وإذا صح ما نعتقده فإن النفوس كانت تتشوف لمثل تلك النماذج المترجم لها وتتطلع إلى أن يكون الخلاص على أيديها. وما نظننا نحيد عن الصواب بالقول بأن هناك متلازمات في تاريخ المغرب تدعونا فعلا إلى التأمل، فتكاثر المالكية في بلاد المغرب مهد لقيام المرابطين ومناخ انتظار المهدي أهل لتجارب مهدوية نجح بعضها وأخفق كثيرها، وذيوع صيت الأشراف وانبعاثهم الاجتماعي هيأ الظروف لظهور عدد من الإمارات كالجوطيين وبني راشد والسعديين. وفي هذا السياق يمكن القول بأن ظهور الحركة المرينية الذي تزامن تقريبا وكتابة التشوف، صبغ بمقومات وجدت في كثير من رجالات التشوف، فهل هي محض صدفة؟. مهما كان الأمر، فنحن ولا شك، أمام تحول مطبوع بمتغيرات النصف الثاني من القرن السادس. فالمجهود الذي بذل في تتبع أخبار الشيوخ وإشخاصهم إلى مراكش حصل في عهد بني عبد المومن ولا سيما خلال عهد يعقوب المنصور، ونهاية القرن تنبئ عن ظهور وعي جماعي للمتصوفة مرتبط بمجال معين كما تؤشر على ذلك عدد من الدراسات التي تطرقت إلى الجانب الشرقي من مراكش؛ ومرتبط أيضا ببداية التنظيمات الصوفية في إطار الطائفة . ومع ذلك، فإن التساؤل عن طبيعة مشروع التادلي يبقى واردا على الرغم مما كتب حول الموضوع[13] فهل يمكن الحديث عن تصوف "حركي" مناهض لكيان الموحدين حتى في أشد أيامهم ارتباكا؟. وهل التقاء مصالح طائفة أبي محمد صالح مع المعسكر الهسكوري تعد بانخراط الطائفة المذكورة في حيثيات الصراع بين مختلف المكونات الموحدية؟[14]، أم أنه يمكن القول بأن مجال نفوذ الطائفة كان يمتد

---

(13) تناولت عدة دراسات كتاب التشوف بكثير من التمعن، نذكر من بينها إضافات احمد التوفيق القيمة في مقدمة تحقيقه لنفس الكتاب وعمل محمد رابطة الدين حول مراكش وقد سبق ذكره و ثلاثية محمد القبلي : رمز الاحياء ومضمرات التشوف وقراءة في زمن أبي محمد صالح التي تعد من بين أهم ما كتب في سبر سيرورة التصوف.

(14) محمد القبلي، قراءة في زمن أبي محمد صالح، ضمن كتاب الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط...، دار توبقال، الدار البيضاء 1997، ص 100-101.

فوق المجال الهسكوري وهو ما يجعلها في موقع المنفعل بأحداث عهد المامون وابنه الرشيد؟ومهما يكن، فإن مجمل التطورات اللاحقة تؤكد مذهب ابن خلدون في مسألة ضرورة توفر عصبية ما لتسند ظهر بعض المتطلعين للأمر داخل هذا الوسط. أما الوقوف على تحقق ذلك فإنه متأخر جدا ووافق فترات انتقال الحكم مطلع القرن الخامس عشر وخلال النصف الأول من القرن السابع عشر مع الجزولية الذين اختاروا تأهيل الأسرة السعدية ثم مع الزاوية الدلائية التي كانت أقرب ما يكون من توحيد البلاد، وكلا الكيانين استفاد من خلفية بشرية مهمة ومن تأطير ضروري للمشايخ. ولعل ذلك هو ما يفسر أن تاريخ التصوف، من هذه الزاوية، هو تاريخ الفرص الضائعة، إذ كلما نضجت الظروف ليشكل بديلا إلا ويأتي من يستفيد من الأمر؛ فقد استفاد الموحدون من مناخ "إحيائي" واسترجع المرابطون فيما يظهر، بعض مضامين التشوف وركب السعديون أكتاف الجزولية وحصد العلويون ما مهد له الدلاء والسملاليون وأبو محلي.

إن ما سبق، لا ينفي بحال أن كتاب التشوف وكتاب المستفاد يرصدان لظواهر متكاملة؛ ككثرة أعداد المنتسبين لهذا التيار والموقع الاعتباري لكتاب التشوف في منهجهم واقتناع بعضهم بأن كثيرا من الفقهاء والعلماء انحازوا لمشاغل الدنيا، وكون الآلة المخزنية أدت إلى كثير من الويلات المخالفة لشروط الإمامة. وكل هذا يؤدي بالضرورة إلى ترسيخ الاعتقاد في هذه الفئة الناجية وجعلها قدوة ومثلا.

لا شك أن المرحلة الممتدة من تسرب إحياء الغزالي إلى المغرب الأقصى، إلى تاريخ تدوين المستفاد والتشوف، تؤرخ لمحطة في التصوف تأتي بعد محطة مديدة هي مرحلة الزهد والتجارب الفردية، ثم جاءت بعدهما مرحلة أخرى أهم ما طبعها هو انبعاث الطوائف إلى جانب استمرار بعض الشيوخ الكبار ووجود مؤشرات على حصول بعض الانزعاج من هذا التطور في أوساط الحكام والفقهاء. ولربما خضعت هذه المرحلة لهندسة رسمية ترددت بين محاولات الانتماء والاحتواء والتصدي للمشكلة في منشإها، وهي المشيخة الصوفية، والعمل على بعث تصوف نصوح ومسالم ليست له امتدادات تنظيمية.

إن هذه المراحل الثلاث لا تعكس طبعا حقب التصوف كلها، وإنما تكشف عن سيرورة امتدت إلى المرينيين الذين سبق أن ألمحنا إلى أنهم اختاروا، بسبب ظروف مطالبتهم بالحكم، أن يؤسسوا لمشروعية كانت مندرجة في حب المقام الشريف، وهو أمر سبق للتادلي أن وصف به مترجميه[15]، وطبقوا ذلك عمليا بنسج علاقات متميزة مع أشراف البلاد وباعتقادهم في أولياء الوقت وتقربهم منهم، وفوق هذا وذاك فإنهم اختاروا ان يدرجوا أسرتهم في مركز هذين الاختيارين بتأسيس ولاية جدهم عبد الحق وبالانتساب إلى الدوحة الشريفة.

وبالنظر عن قرب، يبدو لنا أن الدول المتعاقبة آثرت ان تختص في آن واحد بأمور الدنيا والدين، في إطار نوع من الشراكة المتحكم فيها مع مختلف مكونات الوسط الديني وأنها استفادت أكثر من غيرها من هذا المناخ الروحي؛ في حين لم يثبت ذلك للجماعات التي كان يعتمل داخلها ذلك الإحساس الجماعي المنوه به سابقا، على الرغم مما تأكد من تطور الممارسة داخلها وارتقائها إلى مستوى منظم؛ غير أنه يجب التنبيه مع ذلك، على أن ما لمسناه من وعي بالذات لم يتمح كلية أمام قوى أكثر تنظيما والتحاما وقدرة على "تدجين" واستتباع الفعاليات المعبرة عن المقدس، وأن هذه الأخيرة اختارت، أمام قوة الدول، أن تكون ردیفا لها لفعل الخير أو ترسيخ شفوف معنوي لم يخل من عناية بمصالح الطائفة الآنية.

وبالرجوع إلى العناصر المتفاعلة في هذه المحطة الثالثة من تاريخ التصوف المغربي، نلاحظ استمرار وجود بعض كبار الشيوخ الذين فضلوا الانحياش عن اهل الدنيا، إلى جانب العناية بالمحتاجين والاضطلاع بمهام التربية الروحية والنهي عن المنكر، وعدم التفريط في نصح أولياء الأمور والدعاء لهم بصلاح الحال[16]. وفي

(15) التشوف، ص.42.

(16) نذكر هنا على سبيل المثال تجارب كل من أحمد بن عاشر الشميني السلوي الذي فضل مراسلة السلطان أبي عنان على الالتقاء به بسلا عقب صلاة الجمعة، ومحمد بن عباد إمام وخطيب جامع القرويين بفاس الذي لم يتردد في مراسلة السلطان أبي فارس عبد العزيز في شأن بعض التجاوزات التي يرتكبها بعض من سماهم بحكام الجور. انظر محمد فتحة، مادة أحمد بن عاشر، معلمة المغرب، ج17، رشيد السلامي، رسائل سياسية غير منشورة لابن عباد الرندي، متنوعات محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص.499-529.

المقابل اختار الحكام منهجا وسطا في التعامل معهم، فلم يتوانوا عن الوقوف بأبوابهم والاتصال بهم وأبدوا رغبة متكررة في التبرك بهم وأسندوا لبعضهم بعض الخطط الدينية والمخزنية؛ أما بالنسبة للطوائف المعروفة في هذا العصر، فالملاحظ أن ثلاثا منها خلفت أثرا مكتوبا عن تعاليم شيوخها ومناقبهم، وهي الطائفة الأمغارية والطائفة الماجرية والطائفة الاغماتية. وقد دونت هذه المؤلفات في وقت متأخر من تجارب هذه الطوائف. ويمكن أن نضيف إلى هذه المجموعة كتاب أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ القسنطيني لشديد صلته بهذه التجارب وتأثره بها.

إن ما يميز هذه المؤلفات هو حملها لهاجس، تخطى التعريف بالشيوخ والتذكير تجاربهم، إلى العمل على تأسيس صدارة تليق بمقام الطوائف المذكورة وتعكس تميزها عن غيرها. وإذا كانت قد ركزت كلها على عنصر السبق واتباع السنة والشرع وانخرطت في منحى الزهد والورع وارتقت بسند هؤلاء الشيوخ إلى التلمذة أحيانا على أقطاب طبعوا ببصماتهم حياة التصوف خلال القرن السادس[17]، فإن استحضار هذا الإرث لا يجب أن يحجب عنايتها بقضايا معينة تعتبر ولا شك، من دواعي التأليف وتترجم ما نعنيه بالوعي بالذات.

وبالرجوع إلى بهجة الناظرين[18]، الجامع لأخبار رباط تيط يتضح أن الغاية من تدوينه لا تخلو من رغبة صريحة في تذكير الحكام المرينيين بسوابق الطائفة الأمغارية في خدمتهم، ومن ذلك، تأكيد صاحب الكتاب على سبق الزاوية ومجال نفوذها بصنهاجة، إلى موالاة هذه الحركة حتى قبل سقوط مراكش، منبها إلى أن أواخر الخلفاء الموحدين وعمالهم لم يجرؤوا على التعرض للامتيازات التي كان هذا الرباط يتمتع بها منذ زمن بعيد والتي تتمثل في الإعفاء من المغارم والتحرير من كافة الوظائف وأن العمال كانوا يخافون العمل في المجال الأمغاري المذكور لا سيما إذا

---

(17) خصص ابن قنفذ فقرات مهمة لإبراز صلات الصحبة والأخوة التي ربطت عددا من التجارب الصوفية بالمغارب،

(18) محمد ابن عبد العظيم الازموري، بهجة الناظرين وأنس الحاضرين ووسيلة العالمين في مناقب رجال أمغار الصالحين، مخطوط المكتبة الوطنية، د 1341

كان في نيتهم استخلاص جبايات المنطقة. وجدير بالذكر أن الازموري رتب خطابه بعناية كبيرة ووظف أدوات مختلفة من أجل الإقناع بمطلبه، مستعملا الكرامة وتواقيع السلاطين وظهائرهم وتزكيات العلماء بمهارة كبيرة من أجل تذكير من يهمه الأمر، وبأسلوب لا يخلو من ترهيب ووعيد بضرورة استمرار الملوك في الالتزام بالتقاليد المرعية نحو هذا الرباط. ومعلوم أن هذه التطورات جاءت في معرض سياق سياسي مطبوع بأزمة الدولة المرينية بعد اغتيال السلطان أبي عنان. ولعل أهم نتائجها أن الأسرة الحاكمة لم تعد تتوفر على ما يكفي من عائدات للإحسان إلى عدد من الصلحاء والشرفاء الذين اعتادوا الإفادة من صلات الدولة. وقد أدى ذلك إلى الإضرار بمصالح الرباط المذكور إلى جانب شرفاء آخرين من المرابطين أولاد أبي زكرياء الحاحي وأبي يعقوب الشبوكي[19].

ويلاحظ في نفس السياق أن كتابا مناقبيا آخر له بعد موسوعي بالنظر إلى ما جمع من أخبار الصالحين في المغرب الكبير، هو أنس الفقير[20] قد اهتم إلى جانب رصد ملامح خريطة التصوف في المغرب الأقصى خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري بتأكيد انخراط مجموعة من علماء الوقت في تجارب الصلاح[21] وربط زاوية جده لامه، يوسف بن يعقوب بن عمران، الموسومة بزاوية ملارة بالسند المديني، ومعلوم أن هذه الزاوية كان لها إشعاع كبير بإفريقية وتتلمذ بها بعض كبار الشيوخ كمصباح بوهادي ومحمد بن يحيى الباهلي المسفر وربطتها علاقات أخوة بآخرين كعلي بن بوسف الأنصاري وحسن بن الخطيب علي اللمعة...الخ. ولعل الخيط الناظم للكتاب هو رغبته في إبراز مختلف التيارات

---

(19) محمد القبلي، مساهمة في تاريخ التمهيد لدولة السعديين، مجلة كلية الآداب بالرباط،عدد 3-4، 1978، ص29.

(20) أحمد بن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط، 1965

(21) محمد فتحة، أنس الفقير أو الانتصار لزاوية ملارة، ضمن كتاب محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، منشورات كلية الآداب عين الشق الدار البيضاء 1996، ص. 163-170. وقد سمحنا لأنفسنا بالتذكير ببعض الأفكار الواردة في هذه الدراسة بسبب ما تعرض له النص الأصلي من بتر أثناء النشر.

الصوفية المعروفة بصلاتها بأبي مدين، كما لو كان هدفه هو وضع زاوية ملارة ضمن شبكة أوسع تضم أشهر طوائف المغرب. من جهة أخرى، يلاحظ ان ابن قنفذ ألف بعد أنس الفقير كتابا آخر هو الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية وأهداه لسلطان الوقت أبي فارس عبد العزيز الحفصي (796/1394-837/1434)، ولم يمتنع في الأنس عن التنبيه غير ما مرة إلى الموقع المتميز لزاوية ملارة لدى باقي السلاطين الحفصيين، فقد كان والد جده للام مقربا من السلطان أبي يحيى أبي بكر وحضر بيعته وبشره بطول مدته وسلامته من القتل. وكان ابنه يوسف الملاري (680/1582-764/1363) مقبول الشفاعة حتى في الأمور العظام لدى ملوكهم[22]. وشهد له السلطان أبو العباس بالفرادة والسبق.

كانت صلات هذه الزاوية بالسلاطين الحفصيين متينة ومستمرة في أنس الفقير الذي يصفهم بالخلفاء الراشدين، في نوع من التزكية المتبادلة، ويتضح انحياز المؤلف وموقعه من هذه الدولة في معرض إثارته لموضوع إرث الكرامة، فقد أشار اعتمادا على جواب أحمد بن عاشر بأن الكرامة لا تنقطع بموت صاحبها بل تستمر بعده، وهنا يوسع المؤلف نطاقها لتشمل ذرية الولي الصالح وأحفاده، وعضد كلامه باعتقاد السلطان في الشيخ يعقوب وكونه كتب ليوسف بن يعقوب بعد وفاة الشيخ، يرغبه في الدعاء له عند قبره، ليضيف على إثرها أنه ما زال يتوفر على رسالة السلطان. هكذا نقف على استمرار عناية السلاطين بهذه الزاوية ما تعاقبوا واستمرار الزاوية في الوجود بعد وفاة الشيخ المؤسس وتحصل ابن قنفذ، العالم المتلبس بالطريقة، على رسالة السلطان التي ترقى هنا إلى مقام الظهير المرسخ لصدارة هذه الزاوية بقسنطينة. هل هي احتياطات لإبراز أهمية الزاوية في النسيج الولائي بإفريقية خلال القرن الثامن الهجري، مع أن ما خصها به المؤلف لم يتجاوز سنة وفاة جده للأم ووفيات أصحابه الذين ربطت بعضهم صلات تلمذة مع والد المؤلف؟ أم أنه قصد، في نوع من الترجمة الذاتية الموسعة، أن يؤهل نسه لأمر أعظم، له صلة فيما يبدو، بحرصه على تعزيز تلك الوشائج التي تربط أسرته بالسلطة الحفصية؟ وهل يندرج تأليفه في مشروع أهم ترعاه الدولة وتمهد له، وهو

(22) أنس الفقير، ص. 41

نشر تصوف معتدل ومسالم من خلال تذكيره بمشاهداته بالمغرب الأقصى واتصالاته بالعلماء العاملين وإشادته ببعض الشيوخ الذين أثروا فيه كأحمد بن عاشر وابن عباد الرندي ومحمد بن يحيى الباهلي وموسى بن معطي العبدوسي وعبد الرحمان بن عفان الجزولي وغيرهم، وذلك على غرار مصنف آخر كتب قبيل سنة 1373/774 وهو السلسل العذب[23] الذي أتى على ذكر سير جماعة من الصلحاء من أصحاب أحمد بن عاشر الذي اشتهر بالعلم والصلاح ونفى عن نفسه صفة المشيخة، ومعلوم أن هذا الكتاب أهدي للسلطان أبي فارس عبد العزيز المريني وأنه لم يغرق في ذكر الكرامات ولم يأت على ما يفيد بحصول التوترات المألوفة في علاقة هذا الوسط بالحكام، بل نراه بالعكس، قد اعتنى بإبراز مظاهر التعاون بين بعض الشيوخ والسلطة المرينية. ولا نستبعد أن يكون ابن قنفذ قد اطلع على هذا الكتاب قبل رحيله إلى إفريقية وتأثر به في تحرير الأنس الذي أتى حافلا بالمعطيات الدالة، ومنها موقع زاوية ملارة في نفوس السلاطين الحفصيين ومحوريتها بالنسبة للنسيج الولائي بإفريقية بالنظر إلى صلات الأخوة والصحبة التي كانت تربطها مع عدد من الصلحاء الكبار وكثرة العلماء والفقهاء المذكورين في الأنس في إحالة على ضرورة التكامل بين التصوف والعلم الشرعي.

ولعله من المفيد التساؤل عن هذا التزامن العجيب في الاحتياطات المتخذة على المستوى الرسمي من المتصوفة بإفريقية والمغرب الأقصى وغيرهما. فقد بينت بعض الدراسات الحديثة أهمية الصلاح في إفريقية خلال العهد الحفصي والأدوار التي لعبها سواء على المستوى الاجتماعي أو السياسي وهو ما كان يؤرق السلاطين أحيانا ودفعهم إلى البحث عن سبل للتحكم فيه، وهي إجراءات لا تكاد تختلف في الواقع عما هو مألوف من تدابير في علاقة غيرهم بهذا الوسط[24] ومن بين الوسائل المختلفة المستعملة هناك ما يتصل، عن طريق التأليف، بتأهيل صنف معين من المشيخة، قد يتصف في الحالات المثلى بما ذكرناه أعلاه، وفي غيرها بالحياد واعتزال

---

(23) محمد بن أبي بكر الحضرمي، السلسل العذب، تحقيق مصطفى النجار، منشورات الخزانة الصبيحية بسلا، 1988.

(24) نيلي سلامة العامري، الولاية والمجتمع، منشورات كلية الآداب بمنوبة، 2001، ص. 317-346.

أهل الدنيا بل وعدم الاهتمام بأمر السلاطين؛ فقد ختم ابن قنفذ كتابه وهو يعرض لشروط التوبة، وهي كما هو معلوم أولى خطوات الانخراط في طريق القوم، بقوله": إن من شروط معاملة التائب لجبابرة الدنيا الاعتزال وإن لقيهم فالسكوت أسلم وإن دعي إلى جواب احتاط فيه وإن طلب في دعاء دعا بصلاح الحال والتوفيق للخير... ولا باس بالدعاء على العمال الفجار وإن كان السلطان هو الجائر فلا يدعو عليه فمن دعا على سلطان سلطه الله عليه."[25]

ثالث هذه المصنفات هو المنهاج الواضح[26] وقد ألفه أحد حفدة الشيخ أبي محمد صالح، والكتاب كله مرافعة صريحة ضد فئة من بني عمومة المؤلف عهد إليها بالإشراف على شؤون الرباط وانحازت عن طريقة الشيخ المؤسس، فلم يتوان المؤلف عن وصفها بأبشع الصفات ونعتها بالجهالة تارة وبالتعسف تارة أخرى، مبررا تصديه للأمر بإرادة صون ذكر الشيخ من تأويل الجهلة ومتعسفي أهل العصر وخوفه من أن يؤدي ذلك إلى زوال الطريقة أو أن ينسب الشيخ إلى غير تحقيق، وأنه ما تعرض للذلك إلا استجابة لبعض فضلاء العصر[27] الذين كانوا يحثون عن تلك الفضائل ويتوسلون إلى سماعها على وجهها بكل الوسائل. ويبدو من كلام المؤلف أن طائفة الحجاج قد غرقت في البدع وكثر في داخلها المدعون بعد أن تسلط عليها المعتدون الذين لم يتوانوا عن سفك الدماء[28]. ومعلوم أن عشيرة أبي محمد صالح تنتمي إلى قبائل هسكورة، وإن استظهرت بأصول قرشية أموية، وأنه بعد وفاة مؤسس الطائفة، الذي أوصى بان يخلفه ولده أحمد (جد المؤلف)، ساند أشياخ الهساكرة أبنا آخر هو عبد الله وقدموه ليترأس الرباط ضدا على إرادة الشيخ وفي تجاهل تام لمؤهلات أبي العباس أحمد (ت660/1262 الذي شهد الكثيرون بجلالة قدره وفضائله وكثرة كراماته[29].

---

(25) انس، 115-116

(26) أحمد بن إبراهيم الماجري، المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، تحقيق ودراسة محمد الرايس، رسالة لنيل الدكتوراه من جامعة إكس مارسيليا، 1996 مرقونة

(27) نفسه،ص. 16

(28) نفسه،ص. 19

(29) نفسه، 137 و148

قدم المؤلف تعريفا مقتضبا لعبد الله بن صالح وصفه فيه بأنه حاج ورجل فاضل نال حظا من الدنيا (ت1252/650). أما مؤاخذاته على أهل الرباط فهي بالرغم مما ذكر، لا تتوقف عند أبناء الشيخ، فهم منزهون عنها، بحيث نجده يلتمس العذر لأحدهم وهو عيسى ابن الشيخ الذي عين واليا بأسفي من قبل الخليفة المرتضى الموحدي وبراه من مد اليد إلى أموال الرعية، بالرغم مما اشتهر به من قسوة. أما الطائفة المستهدفة فهي معاصرة للمؤلف الذي كان حيا في مطلع القرن الثامن الهجري، وهي في نظره جاهلة متعسفة مبتدعة تقتتل على الفتوحات وتنتهك فيها حقوق الغرباء علما بأن هذه الظاهرة كانت معروفة في حياة الشيخ ولم يعمل على تغييرها. لا يسمح لنا هذا النص الغني بالنفاذ دائما إلى غاياته المستخفية بالرغم من متانة أسلوبه ودقة صياغته، وهذا راجع إلى أن المؤلف اختار أحيانا أسلوب التلميح والاستعارة، ومن ذلك ما ذكره معتذرا عما بدر منه من تدوين في وجود من هم أولى منه من ذرية أبي محمد صالح، الذين "آثروا الانسحاب إلى جانب الغيورين على الدين لما ألفوا من تعليق الدر في أعناق الخنازير."[30]

وبعد، فهذا الكتاب وإن كنا لا نتوفر على شهادة مخالفة لما سعى إلى إبرازه، فانه يعكس أجواء المنافسة بين ذوي الحقوق في الرباط. وإذا كان تقدم المؤلف في السن وعدم الذرية يبرءانه مما قد ينسب إليه من رغبة في إحياء رباط والده بأغمات أوريكة[31]، فإنه من غير المستبعد أن يكون دافعه هو لم شمل الأحياء من بين أصحاب والده على جانب بعض ذرية الشيخ من اجل الرجوع بالطائفة إلى جادة الصواب، وهو اختيار تفحصناه فلم نجد ما نستند إليه إذ إن إرجاع الأمر لذرية أبي العباس أحمد يستلزم آليات خطاب أخرى لم نقف عليها في المنهاج، ولعل أهم ضمانات هذا الاختيار الانفتاح على سلطة بني مرين فهي وحدها الكفيلة بترجيح طرف على آخر داخل الرباط، والظاهر أن ذلك لم يحصل لبقاء الأمر في ذرية عبد الله بن الشيخ؛ فقد أشار ابن الخطيب إلى أن مقدم الرباط أحمد بن يوسف حفيد

---

(30) نفسه، ص 400.

(31) Ahmed Rais, Aspect de la mystique marocaine au XI-VIIIè/XIII-XIVès à travers l'analyse critique de l'ouvrage Al Minhāj al Wādih, thèse de Doctorat, université d'Aix - Marseille, 1996, p. 133

أبي محمد صالح تلقاه حينما زار أسفي ما بين (760-763/1359-1362) ووصفه بأنه جالس السلطان وقاد ركب الحجاج وجر ببلده دنيا عريضة وأنه كان "يفد على باب السلطان في سبيل دالة بقديمه ويقفل إلى وطنه مجدد الصكوك مستجاد الخلعة[32]" وأن ابن عم المقدم المذكور آنفا، كان خطيب جامع أسفي وأنه كسب بدوره دنيا عريضة[33]. من جهة أخرى فإن الشذرات المتوفرة عن صلات ذرية أبي محمد صالح بالمرينيين تؤكد بدورها تعيين عيسى بن الشيخ عاملا بدكالة أواخر القرن السابع الهجري واختيار أحد حفدة عبد الله بن صالح، وهو عبد الواحد، ليكون من بين خاصة السلطان بفاس[34].

يبدو إذن أن المرينيين راعوا لأبناء الرباط سابق تقربهم من الحركة المرينية وكافأوهم ببعض الخطط الدينية والسلطانية دون أن يميزوا فيما يظهر بين مختلف فروعهم. أما ما تقدم من بحث عن دواعي التأليف فيكفي المؤلف فضلا أنه مكن من حفظ أخبار أبي محمد صالح وتراثه، ولعله وضع هذا الهدف نصب عينيه وهو يحس بدنو أجله، ألم يردد في صدر الكتاب أن المكسب الحقيقي هو أحد ثلاثة: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له[35].

يتبين مما تقدم أن هذه المؤلفات قد اهتمت بقضايا مختلفة وعبرت عن مشارب متنوعة في إطار التأليف المنقبي، وبالرغم من ذلك ومن طول المدة التي استغرقها اكتمال بنيتها، فإن هذه المرحلة حبلت بأشكال متفاوتة من مظاهر الوعي بالذات، أهلت أصحابها ليكونوا القدوة والمثال والوسيلة إلى تجاوز الصعاب، كما عبرت عن غيرة جهوية وعن حمية وتعصب لفئة دون أخرى، ناهيك عما ظهر من بعضها من انتصار لطريقة على حساب أخرى أو رغبة في أن تستظل برعاية السلطان في مقابل انخراطها في ما لا يسوءه. وقد حصل هذا بعد رحيل جيل الشيوخ المؤسسين وتحول طرقهم عن مناهجها الأولى لتصبح عبارة عن مركبات للمقدس، لا تكاد

---

(32) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، نشر وتعليق أحمد المختار العبادي، الدار البيضاء 1985، ص. 69

(33) نفسه، ص. 71

(34) Ahmed Rais, ibid, p.99, 123

(35) المنهاج، ص. 12

تختلف في طريقة تدبيرها عن أية مقاولة دنيوية، فإذا ضاق الحال بورثتها بحثوا لأنفسهم عن آفاق أخرى لزرع بذرة الشيخ وترويج تجارتهم.

وإذا كان هذا البحث قد تبنى تحقيبا متداولا بين كثير من الباحثين ولم يتجاوزه بالنسبة للعصر الوسيط، فإن اصطباغ المرحلة اللاحقة بالإرث الشاذلي المشيشي قد ترتبت عنه خصوصيات وتعقيدات جمة لا تسمح، من منظورنا، بالاستمرار في معاينة حقب التصوف وفق نسق طبقي عادي.

فتحة, محمد. 2010. التاريخ بالمناقب أو الوعي بالذات. *مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية*,مج. 2010, ع. 30, ص ص. 39-54.